أصداء قريبة

للأستاذ عبد العزيز الرفاعى

هذه أصداء تتردد فى خاطرى ، إثر ما قد أسمع من حوار يتصل ببعض الكلمات المتداولة فى المجتمع العربى كله أو بعضه ، من حيث المبنى ، والمعنى ، والأصالة .

ولا يعدو جهدى فيها أن يكون الرجوع إلى بعض ما تيسر من كتب اللغة ، آملا أن يكون فى إثارتها ما يحفز المتخصصين المتضلعين إلى مزيد من البحث والاهتمام ، لاستكمال الشوط .

* يا بختك ... !

ولأبدأ بالبخت .. بمعناه المتداول فى البلاد العربية بمعنى الحظ .. فالناس جميعاً يبحثون عن الحظ الحسن .. وما أنا إلا من الناس .. فلأبحث إذاً عن البخت .. ولكنى لن أبحث عنه عند ضاربة الودع .. ولا قارئة الفنجال ، ولا عرّاف الكف ، ولا المنجمين .. فليس لى عند كل هؤلاء من أرب .. وإنما أنا واحد من أولئك الذين طاردوا السواد .. أعنى سواد الحرف فى بيض الطروس .. وأعماق الكتب .. فعلاقتى إنما هى مع الفيروز آبادى ، والزبيدى ، وابن منظور ، ومن لفّ لفهم .

ومن أعجب العجب أن يطلب (البخت) عند هؤلاء .. ولكن ما علينا .. فهكذا كان !

نقول فى عاميتنا (يا بختك !) ، وعندى ان الاستعمال صحيح ، فالنداء (يا) هنا للتعجب من وفرة حظ المخاطب .. و (بخت) استعملت قديماً بمعنى الحظ .. بغض النظر عما يقال عن أصلها الأعجمى أو الفارسى .. فقد دخلت فى المعاجم العربية القديمة .. واشتق من المادة اسم (بخيت) بمعنى محظوظ .

فهذا ابن منظور (ت ٧١١ هـ) يقول فى (لسان العرب) : « البَخْتُ : الجَدُّ ؛ معروف ، فارسى ، وقد تكلمت – العرب . قال الأزهرى لا أدرى أعربى هو أم لا ؟ . ورجل بخيت : ذو جَد . قال ابن دريد : ولا أحسبها فصيحة . « والمبخوت : المجدود » اهـ

هذا ابن منظور يقرر أنه « قد تكلمت به العرب » أى أن هناك فتوى بصحة استعمالها.

أما الفيروز آبادى (ت ٨١٧ هـ) فيقول فى (القاموس المحيط) :

« البَخْت : الجد ، معرب ... واليخيت والمبخوت : المجدود ... وبختَه : ضربَه . »

وهكذا ترى أن الفيروز آبادى ، يرى أنه معرب ، أى نقلته العرب إلى لغتها . ،

و (البخت) مستعمل فى العامية المكية بمعنى (الخط) ، ويقول المكيون فى أمثالهم : (شختك بختك) ، ويريدون أن الأمر يعود إلى الحظ .. فكل امرىء وحظه .. ولعل صحة كلمة (شختك) هى (شخطك) فالشخط فى العامية هو : (الخط) بالخاء ثم الطاء .. يرسم على الأرض أو الجدار أو الورق .. ولعل اللفظ جاء من استعمال خط الرمل أو خط الكف .. لاستقراء المجهول .. فكأنهم يريدون أن يقولوا : أنت وحظك ..

اللهم اجعلنا عندك من المحظوظين فى الدنيا والآخرة ..

* العوم

وأنتقل من (البخت) إلى (العوم) .. وقد يبدو للوهلة الأولى ، ألاّ صلة بين الاثنين .. ولكن ألم يقولوا : إن البخت يتدخل فى كل شىء .. فلمَ لا يتدخل فى (العوم) .. ؟ ألا يحدث فى دنيا الواقع أن ينجو من الغرق من لا يعرف العوم .. ويغرق العوّام الماهر ؟

إن للحظ كيمياء كما قال ابن الرومى .

وإذا كان بعض اللغويين ، قد شكّ فى انتماء البخت إلى أرومة عربية محض ، فليس كذلك الأمر فى (العوم) فهو يسبح فى العربية حتى الجذور .

قال ابن منظور : « العوم : السباحة ، يقال العوم لا ينسى ، وفى الحديث : علموا أولادكم العوم ، هو السباحة ، وعام فى الماء عوماً : سبح ، ورجل عوّام ، ماهر بالسباحة . وسير الإبل والسفينة عوم أيضا . قال الراجز :

وهُن بالدَّوّ يَعُمْنَ عَوْما

« .... وعامت النجوم عوماً ، جرت . وأصل ذلك فى الماء .. » ١ هـ

وقد استوقفتنى العبارة الأخيرة .. فهل يكون (العام) هذا الحيز الزمنى (السنة) مأخوذاً من عوم الفلك ، وجريها ، وركض الأيام ، ما دامت النجوم تعوم ؟ أغلب الظن أن الأمر كذلك ..

ولا يكاد يخرج الفيروز آبادى عما جاء فى (لسان العرب) ، إلا أن يشير إلى اسم بعض الأعلام ، مثل (عويم) و (عوّام) .

إذاً، فاللفظ .. فصيح .، وهو لا يزال مستعملاً فى العامية العربية ، إن لم يكن

فيها كلها ، فقى بعضها .. فلا نزال فى المملكة العربية السعودية نستعمل يعوم بمعنى يسبح .. ونقول فى أمثالنا : (ابن البط عوام) .. وأعتقد أن هذا المثل موجود أيضا فى العامية المصرية [1] .. كما أن اللفظ موجود أو مشتقاته فى الشعبيات المصرية .. فهناك أغنية تقول : (والنبى يا أحمد علمنى العوم) .. وأخرى تقول : (مش قبل ما ترمينى فى بحورك كنت تعلمنى العوم) .

ونخلص من هذا أن (العوم) من الفصيح المستعمل فى العامية الدارجة فى المملكة العربية السعودية ، وفى مصر وأعتقد أن اللفظ قادر على السباحة فى العاميات الأخرى .

* العرّاف : الصفات القُناقن

وإذا كانت العلاقة بين العوم والبخت ضئيلة فإنها بين العرّاف والبخت حميمة .. فإذا انصرفت كلمة (العراف) إلى الاصطلاح المعروف ، المتصل بالكهانة والكهان .. فهذا مهمته الحديث عن البخت والمستقبل ، والغيب الذى لا يعلم حقيقتة إلامن يعلم السر وأخفى .

قال فى (لسان العرب) : « والعراف : الكاهن ، قال عروة بن حزام :

فقلت لعراف اليمامة : داونى

فإنك إن أبرأتنى لطبيب »

والشاهد يدل على أن كلمة العراف قد تطلق على الطبيب ، كما قال بذلك أيضا صاحب (اللسان) . ومادة (عرف) فيه مادة واسعة .. ولا غرو فإن المعرفة بحر .. ! ولكن يهمنى منها هنا أمر واحد .. هو هل يصح أن تطلق كلمة (عراف) ، على ذلك الخبير ، الذى يستطيع بدون وسائل علمية أن يعرف أماكن الماء في جوف الأرض .. ؟

نعم ؛ يقول صاحب (اللسان) : « ويقال للحازى عراف ، وللقُناقن عراف ، وللطبيب عراف لمعرفة كل منهم بعلمه » اهـ

ومعنى هذا أن أىِ شخص يبلغ من علمه غايته يصح أن نطلق عليه اسم عراف ، مبالغة فى المعرفة .

ولكن ...

يظل هنا التباس فى استعمال كلمة (عرّاف) .. فلماذا لا نختار كلمة أخرى أكثر دلالة على مقصودنا .. أعنى ، خبير التعرف على أماكن المياه الجوفية .. ؟

إننا فى المملكة العربية السعودية نستعمل

---

(١) فى العامية المصرية : (ابن الوز عوام) . (التحرير)

كلمة (الصنّات) ونجمعه على (صنّاتة) ، وهؤلاء الأشخاص يستطيعون التعرّف على الأماكن التى يصح أن تُحفر فيها الآبار .. ولكن كلمة (صنّت) لا توجد فى الفصحى ، بمعنى التسمّع ، ولكن توجد فى المعاجم كلمة (نصت) أى بتقديم النون على الصاد .. وهو قلب يرد فى بعض الألفاظ الفصيحة ، على ألسنة الناس فى اللغة الدارجة .

واللفظة قرآنية ، جاءت فى الكتاب العزيز فى موضعين : فى (الأعراف) : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . وفى قوله تعالى فى سورة الأحقاف : « فلما حضروه قالوا أنصتوا » .

ودلالة السياق واضحة فى الاستماع بعناية ، لا مجرد الاستماع . ففى الآية الأولى وردت كلمة (استمعوا له) ثم ارتدفت بقوله تعالى (وأنصتوا) .

وفى الآية الثانية ما يدل على اهتمام الجن بالاستماع الموجه ، فقد أمر بعضهم بعضا بالتنصت ، للاستيعاب .

وفى (لسان العرب) : « نصت الرجل يَنْصِت نَصتا وأنصت (وهى أعلى) وانتصت سكت ... والنَّصْتة : الاسم من الإنصات ... وأنصته وأنصَت له : مثل نصحه ،ونصح له ، وأنصتُه ونصتُ له ، مثل نصحتُه ونصحتُ له ، والإنصات : هو السكوت والاستماع للحديث .. » ا هـ

أما ما جاء فى القاموس فهو تلخيص شديد ، لما جاء فى اللسان .

وقد زاد صاحب (تاج العروس) ، بأنه قيده الراغب والفيومى بالاستماع وقالوا : أنصت ينصت إنصاتاً إذا سكت سكوت مستمع وقد نصت - ا هـ

وأحسب أن الحق مع الراغب والفيومى وأن الأصل فى (نصت) . ليس (سكت) فقط ، وإنما سكت ليستمع بإصغاء وعناية ، واهتمام .. كما دلت على ذلك الآيتان السابقتان . وكما دلّ عليه الشاهد الذى أورده صاحب اللسان ، وهو قول الطرمّاح :

يخافتن بعضَ المصنغ من خشبة الردى
وينصتن لسمع انتصاتَ القُناقن .

فهو يقول : وينصتن للسمع .. أى لكى يستمعن .

والشاهد الشعرى المشهور :

إذا قالت حذامِ فصَدقوها
فإن القول ما قالت حذام

قال فى (لسان العرب) أنه رُوِىَ :

إذا قالت حذام فأنصتوها ... الخ

إذاً ، فصحة الكلمة الدارجة هى (نصّات) للخبير فى التعرف على مواطن المياه فى جوف الأرض لا (صنّات) .

ونحن نرى أن كلمة (تَصَنَّت) تشيع أيضا فى أعمال الاستماع الخفى كما تجىء فى وسائل الإعلام وأن صحتها (تنصت) ..

والسؤال هو : هل نضع كلمة (نصّات) مكان كلمة (عراف) .. ؟ لكى نقترب من الاستعمال الدارج ، ونبتعد عن الاصطلاح الشائع لكلمة (عراف) ؟

ولكن قبل الإجابة عن هذا السؤال هناك سؤال أهم .. هو : ألم ترد فى العربية كلمة تدل دلالة محددة على ما نريده .. أعنى ذلك الخبير بأمور المياه ؟

والجواب : بلى .. فهذا الطرمّاح يقول فى الشاهد الذى مرّ بنا :

يخافتن بعض المضغ من خشية الردى

وينصتن للسمع انتصات القُناقنِ

فمن هو القناقن ؟ هذا الذى يُضرب به المثل فى جودة الإنصات ..؟

يقول صاحب (لسان العرب) :

« والقِنْقِنُ والقُناقن ؛ بالضم : البصير بالماء تحت الأرض ، وهو الدليل الهادى ، والبصير بالماء فى حفر القَنى ، والجمع : القَناقن ، بالفتح . قال ابن الاعرابىِ : القُناقن : البصير بجر المياه واستخراجها ، وجمعها قناقن ... قال ابن برى : القنقن والقُناقن المهندس الذى يعرف الماء تحت الأرض . قال : وأصلها بالفارسية ، وهو معرّب مشتق من الحفر من قولهم بالفارسية : كِنْ ، كِنْ أى : أحفر . وسُئل ابن عباس : لمَ تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : لأنه كان قُناقنا ، يعرف مواضع الماء تحت الأرض ، وقيل : القُناقن الذى يسمع فيعرف مقدار الماء فى البئر قريباً أو بعيداً . » ا هـ

أما صاحب (القاموس) فاكتفى بأن قال : « القُناقن بالضم البصير بالماء فى حفر القنى » . هـ

أقول : نخلص من كل ذلك ، إلى أن اللغة العربية عرفت اصطلاحاً قديماً لهذا الخبير الذى يعرف مواطن الماء أو لهذا العراف ، أو النصّات أو (الصنّات) وهو (القُناقن) للمفرد بالضم ، والقَناقن بالفتح للجمع .. وهو المهندس فى بعض النصوص السابقة .

وإذا كـان اللفظ ذا أصـل فـارسيٍ ، فـلا علينا ، ما دمنا قد استعملناه من عهد ابن عباس رضى الله عنهما ، ومن عهد الطرماح فـأحرى بهـذه الكلمـة أن تأخـذ مكانهـا فى الاسـتعـمـال .. ولا عـبـرة بما قـد يقـال عن غرابتها .. فهيٍ فى الاستعمال القديم لم تكن غـربيـة ، جـاءت فى شـعـرهم ونثـرهم . ولو أحصينا الكلمات الغريبة التى استعرناها من الأمم ، فى لغتنا اليوم فأصبحت سهلة يسيرة ، ذائعة شائعة – لأتعبنا الإحصاء .

عبد العزيز الرفاعي
عضو المجمع المراسل
من السعودية